سينما

عن صورة تُثير سجالاً

الحاصل خارج الخيال والواقع

صورة طائرة لبنانية تهبط في مطار بيروت لحظة قصف إسرائيلي قربه تُثير سجالاً فيسبوكياً عن مدى صحّتها أو التلاعب بها، في بلدٍ معطوب أصلاً

نديم جرجوره

طائرة لبنانية تهبط في مطار بيروت بعيد قصف محيطه (أنور عمرو/فرانس برس)

للصُور (فوتوغرافيا وفيديو) حضورٌ في فيسبوك اللبناني. صُور عن حربٍ إسرائيلية تُمعن قتلاً وتدميراً. مدن وقرىً لبنانية يُذكِّر سحقها وتغييب أهلها عنها (موتاً أو تهجيراً) بجُرم صهيوني زمن التحضير لإنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين. 76 عاماً، كما الحاصل قبل 14 مايو/ أيار 1948 وفيه وبعده، غير لاغيةٍ حضور توثيق تلك الصُور في وجدان وذاكرة.

الصُور مستمرّة في اشتغالها، وبعض الاشتغال يطرح سؤال الفن والتقنيات الحديثة (فوتوشوب، ذكاء اصطناعي). فالفن غير أساسيّ في توثيق لحظة وتكثيف حالة. التقنيات تُستخدم لحفظ توثيق وتكثيف، أو لتزوير لحظة وحالة. التلاعب يبلغ مرتبة إزالة كلّ فاصل بين واقع/ حقيقة وافتراء/ تزوير. هذا يُشبه تلفيق أخبار لخداع وتجهيل، في جانبٍ نفسيّ من حرب الإبادة.

صورة تُثير رغبة في نقاش: طائرة مدنية تابعة لـ«الخطوط الجوية اللبنانية (MEA)» تهبط على المدرج الغربي لـ«مطار بيروت الدولي» لحظة قصفٍ إسرائيلي وحشيّ على محيط المطار (21 أكتوبر/ تشرين الأول 2024). صورة مُتداولة كثيراً، فيسبوكياً وربما في وسائل أخرى، تُعيد طرح سؤال الواقع/ الحقيقة والتلاعب/ التزوير/ الخداع. يُقال إنّها مُتلاعبٌ بها، ويُقال إنّها حقيقية تؤكّد «بطولة» قائدي طائرات الشركة ومضيفيها ومضيفاتها في أوقاتٍ مصيرية كهذه. الوطنيّ في الدفاع عن مضمون الصورة غير آبهٍ بمدى واقعيّتها/ حقيقتها، فالأهم عنده رمزيّتها المتعلّقة بـ«بطولةٍ» يحتاج إليها لبنانيون/ لبنانيات كثيرون في زمن هزائم، شخصية وجماعية. «العقلانيّ» يريد حيّزاً غير انفعاليّ، فيقول بعدم واقعيّتها/ حقيقتها، محاولاً إيجاد ما يؤكّد ذلك، علماً وفناً، فالأهمّ في تحليله التنبّه إلى الفاصل بين واقع/ حقيقة وكذب/ افتراء.

كأي مسألة تُطرح، في فيسبوك وخارجه، يندر أنْ يُناقَش شيءٌ برويّة، فالحرب أعنف من أنْ يُسمَع فيها صوتٌ هادئ، له مصداقية قول وتحليل. الوطنيّ طاغٍ في أزمنة موت وخراب، وإنْ بانفعال وتشاوفٍ وادّعاء غالباً. الوطنيّ في أزمنةٍ كهذه غير مكترثٍ بمنطق ووعي، فالراهن أهمّ، و«لا شيء يعلو فوق صوت المعركة»، و«لبنان طائر فينيق سينهض من موته حتماً». الصورة تلك تعيد إبراز إشكالية النقاش، بل غيابه لمصلحة عصبيّةٍ وتوتّر. الصورة، بل ما يتردّد حولها وعنها، تؤكّد المؤكّد في بلدٍ معطوب من دون حروب إسرائيلية، فكيف معها وفيها؟ الصورة، إنْ تكن واقعية/ حقيقية أمْ لا، امتدادٌ لفراغ وعبثٍ متفشّيَين في اجتماع وعلاقات وتواصل. هذا لا علاقة له بالسينما.

> صورةٌ تثير سجالاً كأي سجال لبناني آخر في بلد معطوب

أحد أجمل ما في السينما قدرتها على إزالة كلّ فاصل بين التناقضات، لصُنع صورة أجمل وأرقى وأعمق، وإنْ يعكس مضمونها كارثة وموتاً وعنفاً ودماراً ومَسْحاً وتغييباً وجثثاً. السينما لاغيةٌ أصلاً كلّ فرق بين وثائقيّ وروائيّ، فالتداخل بين النوعين يُنتج غالباً جماليات بصرية ستكون دائماً أهمّ من تحديد نوع. صورة الطائرة اللبنانية غير سينمائية، لكنّها، رغم بساطتها الفنية (إنْ تكن واقعية/ حقيقية أم متلاعبٌ بها)، تؤجّج في نفوس كثيرة حسّاً وطنياً يطلب مزيداً من الموت لإشهار بطولة مواجهته، وتحثّ عقولاً قليلة على التنبّه إلى خطورة الانجراف في فخّ الدعاية الفارغة. ألن تكون أفلامٌ كثيرة، بسينمائيّاتها البديعة أحياناً، شبيهةً بهذا كلّه؟

قولٌ لأحمد غصين (مخرج سينمائي لبناني)، منشور في فيسبوك (22 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، مع صورة الطائرة (غير صالحة لنشر صحافي)، يُعتمَد عليه. فبعد اختصاره سجالاتٍ حولها، يكتب عن قوة الواقع وقوة الخيال، وعن أنّ الأولى أقوى من المتخيّل، وأنّها (الأولى أيضاً)، غير محتاجة إلى صورة يصنعها الذكاء الاصطناعي، فـ«قوة الواقع صارت عنيفة إلى درجة أنّ ما نعيشه صار متداخلاً، ونحتاج إلى وقتٍ لنستوعبه». يُضيف أنْ لا أحد يحتاج إلى صورة ذكاء اصطناعي للشعور أنّ قصفاً إسرائيلياً حاصلٌ قرب المطار مباشرة: «لكنّ قوة الصورة تُزيد من العنف». يتساءل: «أنحتاج إلى رؤية مزيد من العنف المشهدي، والإحساس به؟»، قبل إنهائه نصّه (بالعامية اللبنانية) بالتالي: «غير مهمّ إنْ تكن الصورة خيالاً أمْ واقعاً». الحاصل في لبنان، وقبله في غزة تحديداً، غير محتاج إلى نقاش يتناول خيال الصورة أو واقعها. فالحاصل خارج الخيال والواقع معاً.

حوار أجرته **ندى الأزهري**

حلقة ثانية وأخيرة من حوار «العربي الجديد» مع الفرنسي الجزائري رشيد بوشارب، تتناول آراء له في السينما والأجيال وقضايا آنيّة في العالم

رشيد بوشارب [2/2]

«ليس هناك أقوى من عمل فيلمٍ حول قضية»

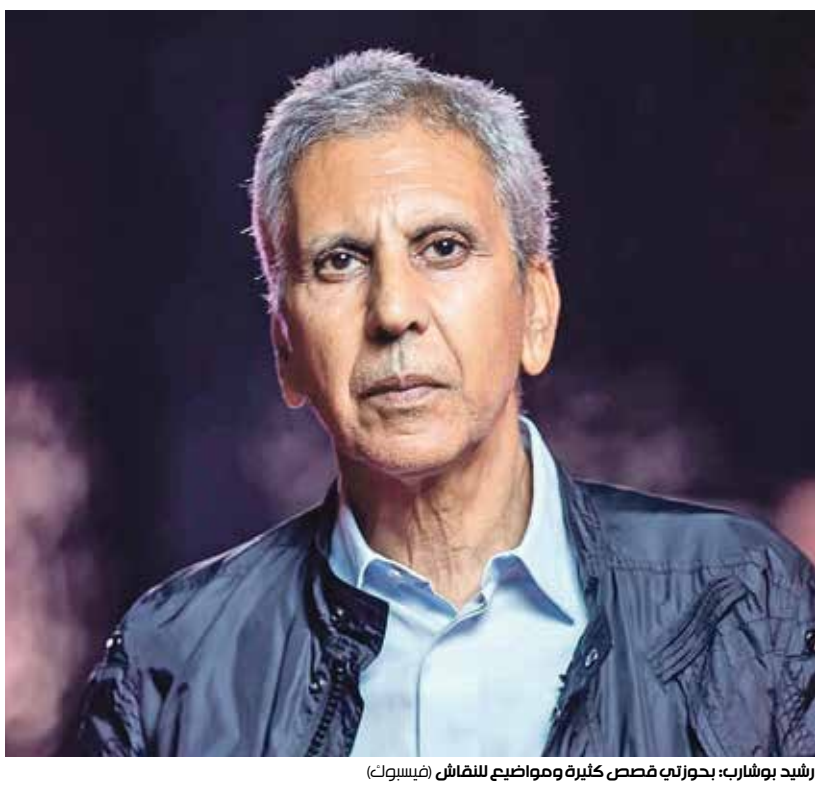

رشيد بوشارب: بحوزتي قصص كثيرة ومواضيع للنقاش (فيسبوك)

■ بمعنى أنّك ضد، أو أنّك لا تميل إلى إعلان تصريحات سياسية، بل تستخدم السينما للتعبير عن آرائك. هل الأمر على هذا النحو؟

قمتُ بهذا في كلّ أفلامي. أثرت قضايا الهجرة والتمييز العرقي والاستعمار والاحتلال في الثلاثينيات ثم الخمسينيات. هذا عملي. حين أشارك في نقاشات مع الجمهور، بعد عرض أي فيلم لي، تُثار قضايا الاستعمار الفرنسي مثلاً، أو التمييز الذي طال الجنود الذين أُلحقوا بالجيش الفرنسي، وأُحضروا من شمالي أفريقيا ودول أخرى من القارة نفسها، ولم تُدفَع لهم تعويضات، كما حصل مع الفرنسيين. كما أنّي أثير مواضيع من المجتمع الفرنسي. أفعل هذا منذ 30 سنة، وسأُكمِل.

■ هناك فنانون يُصرّحون بآرائهم، وآخرون يفضّلون التعبير بأعمالهم فقط، ولا يميلون إلى هذه الوسيلة، أي التوقيع.

لم يرسل لي أحد عريضة لأوقّع عليها (كان في الولايات المتحدة، المُحرّرة). لست ضد أو مع حملات التوقيع. أقوم بعملي، ومن خلاله أنخرط في قضايا كالاستعمار والاحتلال. عبر أعمالي، أقول ما أفكّر به، وما يعيشه الآخرون أيضاً، كوالديّ. ليس هناك أقوى، بالنسبة إليّ، من عمل فيلم حول قضية، والقول إنّ ما يحصل اليوم في فرنسا مُرتبطٌ بالاستعمار، وإنّ هذا موجودٌ في فلسطين، حيث الشعب الفلسطيني ينتظر أنْ يكون حرّاً ومُستقلاً.

■ لنعد إلى السينما. كيف تُقرّر العمل على فكرة ما؟ هل تتركها تختمر، أم تبدأ الكتابة فوراً؟

لديّ أفكار كثيرة، وهذا من سنين طويلة. لديّ برنامج أحدّد فيه متى أنفّذ هذا أو ذاك. كما ذكرتُ، فإنّ توجّهي إلى العمل في السينما عائدٌ إلى توفّر المواضيع، ولا أخشى نفادها، فلديّ منها الكثير.

■ ولكنْ، ألا تفرض مواضيع لم تكن مقرّرة سلفاً نفسها، وتدفعك إلى العمل عليها؟

حين يحدث هذا، فلأنّي أريد مثلاً إنجاز فيلم كوميدي، كما فعلت مع الممثل عُمر سيّ في الولايات المتحدة. أحياناً، أرغب في فتح قوسين، في شيءٍ من التغيير، لأخرج من مواضيعي المحدّدة، ولأخلق جواً مختلفاً بالعمل مع ممثلين مُعجب بهم، كما حدث حين أخرجت «فقط مثل امرأة» (فيلم تلفزيوني، 2012، المحرّرة)، تمثيل غولشيفته فراهاني، عن رجل وامرأة شغوفين بالرقص الشرقي، ويعبران أميركا. هذا نوع أشتغله بعفوية.

■ منذ فترة طويلة أيضاً، حقّقتَ فيلماً فكاهياً اجتماعياً بعنوان «شرف عائلتي» (1998)، عن تقاليد عائلة عربية تعيش في فرنسا.

كان هذا في بداياتي. هناك خطّ عام أسير عليه، أضمّنه مواضيعي المُحدّدة مسبقاً. أحياناً، أخرج في «نزهة قصيرة» لأحقّق فيلماً عن موضوع لا يستغرق منّي وقتاً، كـ«فقط مثل امرأة»، الذي أخذ منّي ثلاثة أشهر لكتابة السيناريو، بينما الأنواع الأخرى تستلزم وقتاً أطول بكثير. الفيلم الذي ذكرتِه كان مع رشدي زم، عن عائلة جزائرية وتقاليدها. كما أردتُ الخروج قليلاً من موضوع الهجرة من شمال إفريقيا إلى فرنسا، فحقّقت فيلماً في الولايات المتحدة عند بلدة على الحدود مع المكسيك، حيث الجدار، وحيث للهجرة أبعاد تتمثّل في الجدار العازل. في فرنسا، لم نبنِ جداراً. لهذا، قرّرت الذهاب إلى هناك لصنع فيلم.

■ ألا تودّ العودة إلى المواضيع الاجتماعية، عن عائلات من أصول مغاربية، تواجِه اليوم تحدّيات عدّة؟ هذا يستحق فيلماً جديداً.

هناك اليوم سينمائيون مغاربة شباب كثيرون، عليهم هم إثارة الأمر، لأنّ الأحوال تغيّرت وتطوّرت رغم كلّ شيء. وهذا مع أنّنا حالياً في الاتجاه الخاطئ. من جهتي، أثرت سابقاً الموضوع، في وقت كانت صعوباته مختلفة عما هي عليه الآن بالنسبة إلى الجيل الجديد. لا أرغب في تكرار نفسي. فحتّى لو تحدّثنا عن صعوبات مختلفة، نعود إلى الشيء نفسه مع المُعاش، وطريقة الكلام. أرى هذا مع أطفالي. إنّهم ليسوا أنا أبداً.

■ كيف؟ أهم أكثر اندماجاً منك حين كنت في عمرهم؟ بالتالي، هذا يمثّل تطوّراً إيجابياً. ما رأيك؟

إنّهم أقلّ تأثّراً بالظروف من جيلنا. كلّ ما يقال ويجري في السياسة. هم في عالم الشباب، في هذا الجيل الذي تجاوز الحدود. لم يكن مُتاحاً لي، في عمرهم، أي اتصال مع بقية العالم.

■ هل يشعرون مثلاً بهذه المرارة التي شعرها جيلك وجيل آبائك، كأبناء مهاجرين؟

تجاوزوا هذا بقوّتهم. يعرفون أنّه موجود، لكن اقْتُرِحتْ عليهم العولمة، فلا حدود اقتصادية، والبروباغندا تحفر في أذهانهم، في 15 عاماً، بأنّ الحدود اختفت، وبأنّنا سنحقّق عالماً رائعاً في أوروبا، وتطوّراً اقتصادياً. قدناهم إلى هنا، وبات صعباً الآن إعادتهم والقول لهم إنّه لن يكون لديهم طريق إلى أوروبا. إنّهم ضمن هذا، ولا يطرحون أسئلة عنه. هناك واقع، فكيف سنقلبه؟

هذا ينطبق على أبناء الأتراك في ألمانيا، أو السوريين. هناك من لا يتحدّث حتّى لغته الأمّ. لديّ أصدقاء في هولندا لا يتحدّثون إلاّ لغتها، وأنا أتحدّث بالفرنسية. لو كنتُ في ألمانيا، لتحدّثت بالألمانية.

■ أهذا جيّد أمْ سيئ، أي الانقطاع عن الجذور؟

الناس الذين لم يعيشوا ظروف الهجرة، أي أولاد المهاجرين، ربما تكون لديهم صعوبة. أنا أتفهّم هذا، لأنّي قادمٌ من هذا المحيط. لكنْ، نحن الآن في الجيل الثالث، وهؤلاء ليس لديهم هوس الجذور. إنّها موجودة هنا. أهلي مثلاً في وهران، وهذا محسوس ومُحدّد لي ولأولادي. جدّتهم والأقرباء هنا في الجزائر. هذا شيء بديهي، ولا يُشكّل هوساً يومياً. حين نقترح على أولاد اليوم أنْ لا حدود للعالم، ينطلق كلّ منهم من جذوره وتاريخه. لكنّنا لسنا مُجبرين على أنْ نجعل من ذلك هاجسنا.

■ هل يكون البطل في ذهنك حين تكتب السيناريو؟ أقلّه الشخصية الرئيسية؟

يحصل معي هذا أكثر فأكثر، لا سيما في أفلامي الأخيرة. بدأ ذلك منذ نحو ثلاثة أفلام سابقة.

■ لماذا الآن تحديداً؟

لأنّي ربما عملت مع ممثلين جيّدين كثيرين. في لحظةٍ، أصبحت هكذا، ولا أعرف لمَ انقلبت. هذا لا يعني أنّ عملية اختيار الممثلين التقليدية (كاستنغ) لا تحصل.

■ أعود إلى بداياتك: متى بدأت تُفكر بصُنع أفلام؟

كانت بحوزتي قصص كثيرة، ومواضيع للنقاش. قلت لنفسي إنّ السينما تُعجبني. درستها، ولم يكن الأمر صعباً، فلم أتساءل عماذا عليّ قوله، وعماذا سأتحدث. أبداً لم أتساءل. كان ذلك حاضراً تماماً في ذهني، ولا مشكلة لديّ. وبما أنّها مواضيع لم تكن مطروحة، كان هذا رائعاً.

■ درست السينما للتعبير عن نفسك؟

ليس الأمر هكذا، بل لأنّي أحبّ السينما، ومُعجب بإنجازات كوستا غافراس. حين شاهدت «زدْ» و«مفقود»، انبهرت، وقلت هذا ما أريد. لمستُ ما لديه من قدرة على مزج مواضيع سياسية بفنّ سينمائي، وهذا منحه النجاح. وجدتُ في مشاهدة أفلامه مدرسة جيدة، وتيقّنت من قدرته على التحدّث عن اليونان وجذوره، وفي الوقت نفسه عن الديكتاتورية في أميركا الجنوبية. أدركتُ أنّ هذا ما أريد عمله، وهذا عزّز رغبتي في الذهاب بالاتجاه نفسه، ولو أنّ الحصول على التمويل في فرنسا صعبٌ ومُعقّد.

■ أهناك مخرجون آخرون أثّروا بك؟

أحببت أيضاً جون كازافيتس وإيليا كازان وفيم فاندرز. كما انفتحت على آخرين تميّزوا بالإخراج الفني. كنتُ أشاهد أفلام الغرب الأميركي كذلك. هناك الكثير منها.

■ والسينما الفرنسية، كيف تجدها الآن؟

أجد الفرنسيين أجرأ في اللجوء إلى إنتاجات ضخمة. تتوفّر اليوم أفلام كبيرة بميزانيات ضخمة، وهذا جيّد. أما الباقي، فلا أعرفه جيداً. أنا متأخّر في هذا المجال. عبرنا إلى جيل آخر، ويصعب دائماً الحكم على أجيال أخرى في السينما، فنحن أحياناً لا نفهمهم، كالحال مع أولادنا. لديهم فكرتهم عن الحياة، وعالمهم مختلف. ربما هم على حقّ. لن أشدّهم ناحية أفكاري قبل 20 سنة.

تساؤلات أفلامه

تتساءل أفلام عدّة لرشيد بوشارب، كـ«السكان الأصليون» (2006) و«الخارجون عن القانون» (2010) و«نهر لندن» (2009) و«السنغال الصغير» (2001) وغيرها، عن تأثير التاريخ على المصائر والهويات. وهو يعتبر أنّه أعطى وجهاً للتاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبقية المستعمرات. لكنّ هذا لا يمنعه من نزهات قصيرة، كما يقول، بين حين وآخر، إلى مواضيع أخرى، أكثر خفّة.